

العتي

في هذه الصورة التي نقصد إلى جلائها مثل من الأمثلة التي توضح بعض النواحي الغامضة والتيارات الخفية السارية في المائة الأولى من قيام الدولة العباسية ، وتبين شيئاً من الألوان التي كانت تسود الحياة الأدبية والعقلية في هذه الفترة من الزمن . وفي هذه الشخصية التي نرجو أن نتبين - قدر ما يمكن أن يتاح لنا - شيئاً من ملامحها وقسماتها ، طائفة من الخصائص التي تميزها عن معاصريها ، سواء في تلك الملامح والقسمات ، أم فيما أحاط بها من الأسباب والملابسات . وإذا كان تراثنا الأدبي الذي بقي لنا عن هذه الفترة يضعنا من هذه الشخصية أمام صورة غامضة مبهمة ، لا تكاد العين تستبين منها خاصة واضحة ، أو تتعرف فيها سمة بارزة ، لضالة ما كتبوه في ترجمتها من ناحية ، ثم لتشتت ما أثر عنها وذهابه في ثنايا الكتب المختلفة وتضاعيف ذلك التراث الأدبي المختلط ، من ناحية أخرى ، فسنحاول في هذا الفصل أن نضم المتفرق ونلم التشعث ، ونستلهم روح العصر ، ونتعرف بذلك ما عسى أن يحلوها ويبرز بعض خصائصها ويضعها في مكانها ، ويظهرنا على الصلات التي تربطها بما حوّلها .

والعتبي عالم راوية شاعر ، ولكنه طراز آخر غير ما ألفنا أن نراه في رواية ذلك العصر وعلمائه وشعرائه . لم ينشأ نشأتهم ، ولم يخرج من طبقتهم ، ولا تعرض لما تعرضوا له من مشاعر وأحاسيس أحاطتهم بها طبقتهم الاجتماعية التي يمتون إليها . وإن هذا اللقب الذي يحمله ويعرف به ولا يكاد يعرف بغيره ليشير إلى هذه المفارقة ؛ إذ ينبه إلى ذلك الأصل الذي ينحدر منه ويرجع إليه ، وهو الأسرة الأموية عامة ، وعتبة بن أبي سفيان خاصة . فهذا هو ذا إذن عالم راوية من طبقة السادة الفاتحين ، لا من طبقة الموالى ، يصطنع العلم ، ويأخذ

الرواة عنه ، ويكتب الكتب فيدفع بها إلى الوراقين ، أو يتلقفونها عنه ليذيعوها ، شأن أولئك العلماء من الموالي الذين ليس لهم من نبل الأصل ولا من تقاليد السؤدد ومواضعاته في ذلك العصر ما يرفعهم عن هذه الصناعة . وها هي ذى ظاهرة من ظواهر التحول الاجتماعي الذي أخذت الجماعة الاسلامية تخضع له ، وقد جعلت بعض نوازعه تتمثل مبكرة في أبي عبد الرحمن العتبي هذا ، وقد وجدت فيه من الملابس الخاصة ما أبرز هذه الظاهرة ويمكن لها وشق سبيلها لتصبح بعد قليل أبعد مدى وأوسع انتشاراً ، فكان - إلى جانب رجل كصعب الزبيرى - من أول الذين تحطمت لديهم هذه الناحية من تقاليد السؤدد العربي في العراق ، وإن كنا - حين نتتبع حياته العلمية واتجاهه الروائى - نراه محكوماً إلى حد غير قليل بجو خاص ، هو جو هذه الأسرة التي خرج منها ، وظل يحمل اسمها . وإذن فلا بد لنا أن نحاول نتعرف ذلك الجو ، ومبلغه من التأثير فيه . ويبدو أن العاسل الأول في تكيف ذلك الجو ، ثم في اتجاه العتبي تلك الوجهة ، يرجع إلى تلك الغير التي عانتها هذه الأسرة في صلتها بالسلطان . فقد كان عتبة بن أبي سفيان ، وهو - كما قلنا - الجد الأكبر لهذه الأسرة ، أختا الخليفة وردعه ، وأحد الذين بنوا تلك الدولة ومكثوا لها ، وردوا عنها كثيراً من المكائد التي كانت تترصد بها ، والفتن التي كانت توثب عليها . وقد كان - كما نستطيع أن نرى ذلك من مواقفه في مصر وخطبه المأثورة بها - رجلاً مهيباً شديد البأس قوى العارضة بيناً حاضر الحجة ، اجتمعت له في شخصيته الصفات التي تجعله من بناء الدول ، وكذلك كان من أقوى بناء الدولة الأموية ، وإن عاجله الموت فمات سنة ٤٤٤ مرابطاً بالاسكندرية . وبموته انتهى - فيما يبدو - نصيب هذه الشعبة من السفيانيين في الدولة ، فلم نعد نرى أحداً منهم يشارك في أعمالها ، أو يتولى أموالها ، وإن كان فيهم رجل كعمرو ابن عتبة عرف ببعده النظر ورجاحة العقل وشجاعة القلب والاتزان والبعد عن الهوى ، وهي الصفات التي أهلته ليكون زعيماً للسفيانيين ، يدافع عنهم ، وينطق بحجتهم ، ويتكلم بلسانهم ، فيما كان بينهم وبين الروائيين الذين صار الأمر إليهم ، وفيما كانت الدولة تنالهم به - ولا سيما في أيام عبد الملك بن مروان - من تسخط عليهم ، وتنكر لهم ، وانتقاص لحقوقهم . ولكنه اكتفى بهذا القدر في موقفه من الدولة ، فلم يغامر في شئ من السياسة ، ولا شارك في شئ مما كان يدبر ضدها ،

ويراد به إحداهن نوع من الانقلاب فيها ، وتهيئة الأمر لبعض هذه الأسر الأموية التي نحيت عنه ؛ فقد كان إلى جانب تلك الصفات التي ذكرناها رجلاً مستقيم الخلق صريح المذهب قوى الشعور بجرمة الرحم الماسة .
ولعله كان أول من استوطن بأسرته البصرة ، وقد عاش بها سريراً ممدحاً .
ولعله لم يكن يتاح لنا أن نعرف إقامته فيها ، وأولية هذه الأسرة بها ، لولا هذه الأبيات التي قالها الفرزدق في مدحه :

لولا ابن عتبة عمرو ، والرجاء له ما كانت البصرة الحمقاء لى وطنا
أعطاني المال ، حتى قلت : يودعني أو قلت : أودع لى مالا رآه لنا
فجوده متعب شكرى ، ومنته وكلما زدت شكراً زادنى منسا
يرمى بهمته أقصى مساقها ولا يريد على معرفه ثمنا

- وانهت الدولة الأموية ، وقامت الدولة العباسية مقامها ، والعتبيون بالبصرة وعلى رأسهم فى ذلك الوقت عمرو بن معاوية بن عمرو بن عتبة ، جد العتبي . وكان على البصرة حينذاك سليمان بن على . وقد شارك فى الخطة التى اختطتها الدولة الجديدة للانتقام من بنى أمية وتبعضهم والتنكيل بهم . فاستطاع عمرو بن معاوية أن يخفى بأهله حيناً من الزمن ، حتى استقرت النفوس وهذأت الثائرد بعض الشئ ، فأظهر نفسه ، وتقدم إلى سليمان بن على ، فقال له : « أصلح الله الأمير ! لفظتنى البلاد إليك ، ودلنى فضلك عليك . فاما قتلتنى غانماً ، وإما رددتنى سالماً » . فقال له : « ومن أنت ؟ ما أعرفك ! » ، فانسب له . فقال سليمان : « مرحباً بك ! أقعد آمنأً غانماً . ما حاجتك ؟ » ، فقال : « إن الحرم اللواتى أنت أقرب الناس إليهن معنا ، وأولى الناس بهن بعدنا ، قد خفن لحوفنا . ومن خاف خيف عليه » . فدمعت عيننا سليمان ، ثم قال : « يا بن أخى ! يحقن الله دمك ، ويحفظك فى حرمك . ويوفر عليك مالك . والله لو أمكننى ذلك فى جميع أهلك لفعلت . فكن متوارياً كظاهر ، وآمنأً كخائف » . ثم استصدر سليمان بن على من الخليفة أمانأً له ولمن كان ثمة من أسرته .

وهكذا نجت هذه الأسرة من تلك العاصفة العاتية التى هبت على الأمويين فى مختلف الجهات ، فاقتلعت معظمهم وطوحت بهم إلى ما وراء هذه الحياة ، واستطاعت أن تستقر آمنة مطمئنة فى هذه المدينة التى اختارتها لنفسها منذ

جيلين مضيا ، وكانت قد رأت في الإقامة فيها ما يكفل لها الهدوء والسعد عن تلك السيارات والنزعات التي كانت تفسد على الأسرة الحاكمة حياتها في الشام . ولكنها إذ تحس اليوم روح الأمن وبرد الطمأنينة تحس إلى جانب ذلك أنها فقدت مكانها الذي كانت تنبوؤه من قبل ؛ فلم تعد تلك الأسرة السرية التي تربطها بالدولة أوثق الأواصر ، والتي تملك من أحاسيس المجد ومظاهره ما يملؤها عزة ، ويحيطها بمعاني الكبرياء والرفعة ، ويرتفع بها عن اصطناع أساليب الحياة التي يصطنعها عامة الناس . فقد ذهب عنها ذلك كله بذهاب دولة بني أمية ، وأصبحت لا تملك منه إلا ما بقي لها من ذلك الرباط التاريخي الذي يربطها به . فليس لها إلا أن تتبلغ برواية أخباره ، وتناقل أحاديثه وآثاره .

ولعل الأمر لم يقتصر على ذلك فيما يتعلق بهذه الأسرة . فهي لم تنفقد مكانها الاجتماعي في هذه المدينة فحسب ، بل تغير الجو من حولها كذلك فيما يمس مشاعرها العربية أولا ، ومشاعرها الأموية ثانياً . فلم تعد الدولة عربية ، كما كانت من قبل ، بل أصبحت فارسية في كيانها وفي اتجاهها وفي هذه الألوان الغالبة عليها . ولم تعد تلك النزعة الشعوية تنسلل في خيفة ورقبة واستحياء ، بل أصبحت نزعة قوية عارمة ، تجاهر بالدعوة ، وتفرط في الخصومة ، وتتفخم على الناس في شيء غير قليل من الكبرياء والفحمة ، غير متحرجة ولا متأنمة . ثم ها هي ذي الدولة القائمة لم تكد تفرغ من حملة المطاردة والتقتيل والتمثيل التي شنتها على الأمويين ، حتى أخذت تنظم حملة أدبية عليهم تتجه بها إلى نفوس الناس وعقولهم ومشاعرهم ، فأخذت توعد بالوسائل المختلفة إلى بعض العلماء والرواة ليكونوا أذاتها في هذه الحملة ، إذ يتناولون خلفاء الأمويين وأمرأهم ، يتعقبونهم ، وينقبون عن أخبارهم ، ويمثلون بتاريخهم ، ثم يولدون الأخبار المنكرة وينسبونهم إليهم ، سواء في ذلك حياتهم الخاصة وحياتهم العامة ، مما لا يزال لدينا منه أطراف مختلفة في كتب الأدب والمحاضرات تمثل لنا هذا النوع من النشاط . وهكذا جعلت هذه الأثرة تنفس ذلك الجو البغيض يمضها ويوغر مشاعرها ، ويشير في نفسها آلم الذكريات . وفي ذلك الجو نشأ صاحبنا أبو عبد الرحمن محمد ابن عبيد الله العتبي .

خرج العتبي إذن من بيئة غير تلك البيئات التي تعودنا أن نرى العلماء والرواة في تلك الفترة من الزمن يخرجون منها ، وفي تلك الملابس التي خلقت في تلك البيئة جواً خاصاً بها . وقد تكون هذه الأسرة قد أحست منذ انتقل الأمر من السفينيين إلى الروانيين ، شيئاً من العزلة . وقد يكون من مظاهر هذا الإحساس هذه الإقامة البعيدة في البصرة في غير حاجة إلى هذا الإبعاد من ولاية أو نحوها . ولكن هذا الإحساس بالعزلة قد أوجد لها نوعاً من الاعتداد بالنفس ، ونزع بها - فيما يبدو - إلى استمداد الشعور بالكرامة ، واستبقاء روح العزة من أصول أبعد من الخلافة والملك ، كالذي نلاحظه في بعض ما يروى من حديث عمرو بن عبّة إلى بنيه في شيء من الخصومة وقع بين آل أبي سفیان وبني مروان ، إذ يقول لهم : « إن لقريش ذرجاً تزلق عنها أقدام الرجال ، وأفعالا تتشع لها رقاب الأموال ، وألسناً تكل عنها الشفار المشحوذة ، وغايات تقصر عنها الجياد المنسوبة . ولو كانت الدنيا لم ضاقت عن سعة أحلامهم ، ولو احتفلت ما تزينت إلا بهم . ثم إن ناساً منهم تخلقوا بأخلاق العوام ، فصار لهم رفق باللؤم ، وخرق في الحرص . لو أمكنهم قاسموا الطير أرزاقها . إن خافوا مكروها تعجلوا له الفقر ، وإن عجلت لهم نعمة أخروا عليها الشكر . أولئك أنضاء فكر الفقر ، وعجزة حملة الشكر » .

فعمرو بن عبّة لا يحاول في هذه العبارة - إن صححت نسبتها إليه - أن يثير في ولده الشعور بالكرامة ، بالتحدث عن بني أمية ، بل هو يرجع بهم إلى ذلك الأصل الأبعد ، وهو قريش . ومهما يقع الشك في نسبة هذه الفقرات ، فليس يفوتها - إذ كان راويها العتبي - أنها تصور ذلك النوع من شعور الأسرة منذ حدثت الفرقة بين السفينيين والروانيين . فالذي يعنينا في حقيقة الأمر من هذا هو ما يمكن أن يخلص لنا من تصور هذه الأسرة أنها كانت تعيش منذ عهد غير قريب - بالنسبة لعهد العتبي - منقبضة في نفسها وفي مشاعرها الخاصة بها . فلم تكن تعيش في الخارج قدر ما كانت تعيش في ذلك الجو المقصور الذي يضطرب بالأخبار والروايات والأحاديث الخاصة التي تنحدر إليه وتتسلل نحوه عن الآباء والأجداد والأهل والحاشية ، فتجد فيها أنواعاً من الأنس ، في وسط ذلك الشعور بالعزلة .

ومهما يكن من أمر هذا الشعور فقد كان يخالطه من بعض جوانبه -

بطبيعة الحال — الاحساس بمجد الخلافة ، على ما ذكرنا من قبل ، ولا سيما إذ كان الناس ينظرون إليها بهذا الاعتبار ، وإذ كان من الطبيعي أن يتجاوب وإياها إحساس هؤلاء الناس لقاءها . فالعزلة النفسية التي كانت هذه الأسرة تستشعرها إنما كانت إحساساً جزئياً على كل حال ، حتى تغير الأمر ذلك التغير ، وحدث ذلك الانقلاب ، وانتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني العباس ، ثم حدث ما أشرنا إليه من استعلاء النزعة الشعوبية ؛ ومن ذلك الاتجاه إلى تشويه الذكريات الأموية ، ومحقق ما عسى أن يكون فيها من مآثرة تؤثر ، أو فضيلة تروى وتذكر . وبذلك نمت هذه العزلة النفسية واستحكمت حلقاتها أو كادت ، وقوى إحساس العتبيين أنهم يحيون في غير زمانهم ، أو كأنهم لم يعودوا يعيشون إلا في هذه الذكريات والأخبار التي جعلت تملأ جوههم وتؤنس وحدتهم .

ولسنا ندري على وجه الدقة متى ولد محمد بن عبيد الله العتبي ، فلم يشر المؤرخون إلى ميلاده أية إشارة ، وكأما كان ذلك من مظاهر تلك العزلة التي عانتها أسرته التي ولد فيها ، في إبان استحكام حلقاتها فيما يظهر . وإن كنا نستطيع أن نجد في مقارنة بعض النصوص والاستنتاج منها ما لعله يدلنا بعض الدلالة على وقت مولده في شئ من المقاربة . من ذلك ما حكاه المرزبانى في حديثه عنه ، في كتابه معجم الشعراء ، أنه بلغ سنّاً عالية ، وما ذكره الخطيب البغدادي في تاريخه أنه مات سنة ٢٢٨ . فلنا من هذا أن نفترض القول بأنه ولد قبل منتصف القرن الثاني . فاذا أضفنا إلى ذلك ما ذكره الخطيب من أنه تلقى عن أبي مخنف لوط بن يحيى ، وقد مات أبو مخنف هذا — كما ينص على ذلك ياقوت — سنة ١٥٧ ، كان لنا أن نفترض سنة ١٤ تاريخاً لمولده ، أو قريباً من ذلك .

والأمر في نشأته كالأمر في سنة مولده غامض مبهم لم يصلنا عنه شئ ، إلا ما يذكره الخطيب حين يجد نفسه مضطراً إلى أن يذكر شيوخه ، فيقول إنهم أبوه وسفيان بن عيينة وأبو مخنف . وقد يكون مما يلفت النظر ويثير الشعور بالغرابة أن يكون سفيان وأبو مخنف شيخيه ، وليس واحد منهما بصريا . فسفيان كوفي الأصل انتقل إلى مكة فصار محدث الحرم ، وأبو مخنف كوفي أيضاً . فما دلالة هذا ؟

والخطيب حين يذكر هؤلاء فائماً يذكرهم على أنهم شيوخه في الحديث ،

فأما شيوخه في غير الحديث فليس هنالك ما يدلنا على أحد منهم ؛ فالترجم التي وقفنا عليها لا تشير أية إشارة إليهم ، والأخبار المتناثرة المستندة إليه — مما بين أيدينا — لا تكاد تكون في أسانيدنا إشارة إلى شيخ من أصحاب الرواية كان يروى عنه هذه الأخبار وكأنه ليس هنالك إلا أبوه عبيد الله بن عمرو . وإذا صح أنه لم يتلق الأدب عن أحد من هؤلاء العلماء الذين كانت البصرة تزخر بهم كان ذلك أمراً غريباً ، غزابة ما أشرنا إليه من أنه لم يتلق الحديث عن أحد من شيوخ البصرة ، وإنما تلقاه — فيما يظهر — في بعض رحلاته إلى الحجاز . وكأنه قصد إليه — أي إلى الحديث — كما كان يقصد إليه أبناء الأمراء ، فهو نوع من الترف ، وهو تقليد من التقاليد . ومن ذلك لم يعن بالتخير ؛ فأحد شيوخه وهو سفيان ثقة ، والآخر « كوفي ليس حديثه بشيء » كما يقول ابن معين عن أبي مخنف . فتأويل تلك الغزابة يمكن أن يكون في هذا ، كما يمكن أن يكون في تلك العزلة التي استحكمت واشتدت في ذلك العهد الذي نشأ فيه العتبي . وبذلك كان شيخه الأول — ويكاد يكون شيخه الفرد — أباه عبيد الله بن عمرو ، وكان سيدياً أديباً فصيحاً ، كما يصفه ابن النديم .

نشأ محمد بن عبيد الله في وسط تلك الحالات النفسية المقصورة التي عوضها ، وجعل عقله وخياله يتفتحان على هذه الأحاديث والآثار التي كانت أسرته تتناقلها ، والذكريات التي كانت تتوارثها : تتعزى بها ، وتأنس إليها . فجعل يتحفظها ويرويها ويملا قلبه وعقله بها ، على ذلك الوجه ، لا على أنها علم يدرس . وإن كانت لم تلبث حتى صارت فنا من فنون الرواية يرويه الرواة ويستمع إليه الطلاب ويدونه الوراقون ويذيعونه ، حين اتجهت الدعاية إلى الغرض من الأمويين وتشويه آثارهم ومحق ماثرهم ، بتأثير النزعة الشعبوية المتوثبة والدولة الجديدة جميعاً ، فأحس العتبي بما ينبغي أن يبذله لقاء ذلك ، فاتجه إلى إذاعة هذه الأخبار والآثار التي كان يحفظ منها قدرأ غير قليل . وقد وصلت إلينا طائفة من هذه الأخبار منسوبة إليه ، وهي تتجه في مجموعها إلى تمجيد بني أمية ونسبة صنوف مختلفة من الفضل لهم ، سواء في ذلك خلفائهم وأسرؤهم وولاتهم ، كعاوية ، ويزيد ، وخالد بن يزيد ، وعبد الملك ، وهشام ، والوليد ، وعمرو بن عتبة ، والحجاج ، وعبيد الله بن زياد ، وخالد بن عبد الله

القسري . وكأنما كان بذلك يحاول أن يصلح ماتفسده الدعاية ، وأن يعدل كثيراً من الصور التي كانت تذيعها عن رجال تلك الدولة الذاهبة . وإذا كانت فتنة الرواية في تلك الفترة قد طرقت سبيلاً نهجاً لدعاة الشعوبية ورجال الدولة الجديدة ، فاستطاعوا في غمرتها أن يدسوا دسائسهم ، ويبشوا ضد الأمويين دعائهم ، فان هذه « الفتنة بالرواية » نفسها قد أتاحت لأبي عبد الرحمن العتبي أن يقاوم تلك الدعاية ، بما كان يذيع من أخبار الأمويين وماثرهم . وإذا كان دعاة الشعوبية قد وجدوا في خلال تلك الثورة الاجتماعية التي صحبت قيام الدولة العباسية كثيراً من الآذان المصغية إليهم والقلوب المائلة نحوهم والمشاعر المشاركة لهم ، فقد كان هناك من يحس العطف على بني أمية والرثاء لهم ، ولا سيما في مدينة كالْبصرة كانت العثمانية تحتل فيها مكاناً ظاهراً ، وكانت روح السخط على الدولة الجديدة لا تزال متفشية فيها غالبية عليها . وإذا كانت النزعة الأموية في ذلك الوقت أمراً محتاجاً إلى الدرس لتبين وجوهها المختلفة ، فليس هناك من شك في أنها كانت موجودة على نحو ما . وليست أسطورة السفيناني إلا مظهراً من مظاهر تلك النزعة . فقد كان موقف العتبي إذن استجابة أديبة لها ، إلى جانب كونه عاملاً من العوامل التي جعلت تغذيها وتشد من جانبها ، حتى أصبحت بعد ذلك بقليل ، وفي أيام الخليفة المأمون ، أمراً واضح الخطورة ، تحسب الدولة حسابه وتخشى جانبه ، وتتخذ التدابير لمواجهة . وإن كنا لا نشك في أن نشاط العتبي من هذه الناحية كان نشاطاً أدبياً خالصاً في ذاته ، وأنه لم يتجه به وجهه سياسية ، وإن وجدت السياسة فيه شيئاً تستطيع أن تستغله .

وهكذا نرى أن العتبي كان يمثل بتلك الوجهة التي اتجه إليها في رواية الأخبار تياراً من التيارات الخفية السارية في المجتمع الاسلامي لذلك العهد ، والذي لم يلبث أن جهر واستعلن . ولكنه كان يمثل من الناحية الأدبية التي نعى هنا بملاحظتها وتسجيلها ؛ إذ كانت العناية بالصورة الأدبية الفنية لهذه الأخبار ظاهرة الأثر فيها .

وبعد فقد كان العهد الأموي — كما قلنا — عهداً عربياً يمثل الروح العربية في جميع ألوانه ، في رجاله وفي بيانه ، فلا جرم كان تصويره تصويراً للروح

العربية ، وكانت رواية آثاره تعتبر من بعض وجوهها استجابة لهذه الروح ، كما أنها كانت تجد الحافز لها عند العتبي من ناحية الأموية والعربية جميعاً ، وهما فيما يبدو متداخلتان عنده كل التداخل . وإن من الآثار التي كان يعنى بروايتها مالا يتضمن تمجيداً للأمويين ولا إشادة بهم ، وليس يربطها بهذه الناحية إلا أنها من الآثار المنسوبة إلى عهدهم ، ثم هي ليست بعد ذلك إلا ألواناً من حديث الأعراب ، وصوراً من البيان العربي التقليدي الجميل . والواقع أن أول ما يلاحظه المستقرى لما وصل إلينا من روايات العتبي في هذا الباب أنها رواية أدبية في حملتها وفي اللون الغالب عليها . فالأخبار المجردة قليلة الحظ فيها ، والكثرة الغالبة هي لهذه الآثار الفنية التي تمثل روح اللغة العربية ، على لسان بعض الأمراء الأمويين أو غيرهم ممن هم بسبيل منهم . ولعل من أوفر هؤلاء الأمراء حظاً من ذلك حده الأكبر عتبة بن أبي سفيان ؛ فعناية العتبي برواية آثاره عناية طاهرة ، لا لانه جده الذي ينتسب إليه ويحمل اسمه فحسب بل لقدرته البيانية الرائعة فيما يؤتر عنه من خطب ، كخطبته في مصر حين اخدت الثورة على بني أمية تدب فيها ، وكخطبته في الحجاز سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدهم بفتنة . فالأمر في مثل هذه الروايات يرجع إلى شعوره الشخصي وشعوره الأموي وشعوره العربي وتزعيته البيانية جميعاً .

على أن هنالك إلى جانب هذا النوع من الرواية مجموعة من الآثار التي يعنى العتبي بروايتها ، دون أن تكون أموية ، وإنما هي عربية أعرابية ، لا يربطها بالأموية إلا تلك الصفة العامة التي أشرنا إليها ؛ فهي أقوال من حديث الأعراب ، تختلف في موضوعاتها ، وفي نوع صياغتها ، وفي طولها وقصرها ، ولكنها تتفق جميعاً في العبارة الجميلة المحكمة التي تصور روح اللغة العربية تصويراً جيداً ، وهي في جملتها أقرب إلى الحكم والأمثال وجوامع الكلم ومحكمات الأوصاف ، كقول أعرابي في صفة رجل شجاع : « نعم حشو الدرع ومقبض السيف ومدرة الرمح هو . كان أحلى من العسل إذا لوبن ، وأمر من الصبر إذا خوشن » ، وكقول آخر في وصف رجل جميل . « فلان إذا نظرت إليه مومسة سقط خمارها ، وإذا رآته العيدان تحركت أوتارها » ، وكقول ثالث في وصف الصديقي : « خير الاخوان من ينيل عرفاً ، أو يدفع ضراً » ، وكقول

غيره في وصف مشهد طبيعي: « مررت ببلدة ألقى بها الصيِّف بعاعه ، فأظهر غديراً يقصر الطرف عن أرجائه ، وقد نفت الريح القذى عن مائه ، فكأنه سلاسل درع ذات فضول » ، إلى غير ذلك من العبارات الجامعة التي تمثل روح العربية في التعبير وبناء الجملة وصفات الجبال فيها ، مما نجد متناثراً هنا وهناك في كتب الأدب العام كالأملح والعقد وما إليهما .

على أن هناك سؤالا تثيره هذه الفقرات القصيرة المحكمة التي تمثل صورة أو تقدم حكمة ، والتي كان العتبي معنيا بروايتها عن الأعراب ، والتي تقابل نظائرها من صور الأدب الفارسي مما ذاع في العهد الساساني ، وعنى بنقله إلى العربية في أوائل العهد العباسي : أهنالك شيء من المعارضة كان يحسه العتبي ومن إليه حين كانوا يعنون برواية هذه الجمل القصيرة الجامعة ليضعوها بازاء ذلك النوع من الأدب الفارسي ، حتى لا يذهب الظن بالناس إلى أن مثل ذلك الفن لا عهد للعربية به ؟ إن روح ذلك العصر تجعلنا نرجح ذلك الفرض في الاجابة على ذلك السؤال . ومثل هذا يمكن أن يقال أيضاً عما يرويه العتبي مما يصور النسك عند الأعراب ؛ فقد ذهب في الناس أن النسك فارسي ، إذ كان أكثر النسك في ذلك العهد فرساً ، ومن ذلك نراه حريصاً على النص فيما سمعه من ذلك القبيل أنه سمعه من أعرابي .

وبعد فهذا هو العتبي الراوية ، وتلك هي وجهته في الرواية ، وذلك هو الأصل في تلك الوجهة . وقد رأينا مكانه من هذه الوجوه المختلفة التي كان يتخذها النشاط الأدبي في عصره ، وصلة ذلك بالنزعات السياسية اسارية فيه . ولعلنا نستطيع أن نتعرف فيما قدمنا أثره في إمداد النثر العربي الفني وتوجيهه . وليس من غرضنا في هذا الفصل أن نستقصى النواحي المختلفة لأبي عبد الرحمن العتبي . ولكننا لا نستطيع أن نفضل القول في المذهب الذي كان يصطنعه من مذاهب الحياة العقلية السائدة في ذلك الوقت . فقد كان الرجل إلى جانب تلك الثقافة العربية يأخذ نفسه ببعض فنون المعرفة الرفيعة، ويحاول أن يسبغ على نفسه بعض ألوان الحياة العقلية المتأززة ، وهي التي كانت تمثل - أكثر ما تمثل - في هذه الثقافة اليونانية التي أخذت الطبقة المترفة تراها مظهراً من مظاهر الترف ، فهي حريصة عليها حرصها على هذه المظاهر . وكذلك كان العتبي . ويشير الجاحظ في مقدمة الحيوان إلى الصلة

التي كانت بينه وبين رجل كمحمد بن الجهم ، من أصحاب تلك الثقافة — وقد أتىح لنا من قبل أن نتحدث عنه ونعرف بعض الشيء به (١) — وإلى أن تلك الصلة كانت تقوم بين ماتقوم عليه على التماس ألوان هذه الثقافة وآثارها. وقد كانت هذه الثقافة اليونانية تسلك في ذلك الوقت سبيلين : سبيل المعتزلة ، وسبيل الأطباء . وكانت السبيل الأولى سبيل رجال الدين ، والثانية سبيل الرجال المدنيين ، ومن هؤلاء الأخيرين كان محمد بن الجهم ، وكان — فيما يصفه الجاحظ به — من فلاسفة الأطباء . وكذلك نستطيع القول بأن اتجاه العتبي إلى هذه الثقافة لم يكن اتجاهاً دينياً اعتزالياً ، وإنما كان اتجاهها مدنياً فلسفياً ، وإن كنا لا ندرى في حقيقة الأمر إلى أي مدى بلغ منها .

على أن الجاحظ يصوره لنا — في موضع آخر من كتاب الحيوان — صورة طريفة يحسن بنا أن نقف عندها وننظر فيها . فهو يعرضه في هيئة الرجل الذي يحرص أشد الحرص وأبلغه على دقة العبارة وتحريير المراد والتخرج في ذلك إلى أبعد مدى . ولكنه يدقق في غير موضع تدقيق ، ويتخرج دون ما يدعو إلى التخرج ، ويبلغ من ذلك مبلغاً أدنى إلى السخف أو هو السخف نفسه . فهي صورة عابثة ساخرة تصور فن الجاحظ من ناحية ، وتبين من ناحية أخرى كيف كان ينظر إلى هذا الصنف من العلماء ؛ ولكننا مع ذلك لا نعدم أن نرى فيها أثر اتجاه الرجل للثقافة اليونانية في بعض مظاهر سلوكه في التفكير أو التعبير . قال :

« وكان العتبي ربما قال : « فقال لي المأمون كذا وكذا حين صار النجم على قمة الرأس ، أو حين جازني شيئاً ، أو قبل أن يوازي هامتي . هكذا هو عندي ، وفي أغلب ظني ، وأكره أن أجزم على شيء . وهو كما قلت إن شاء الله تعالى ، وقريباً مما نقلت » . فيتوقف في الوقت الذي ليس من الحديث في شيء . وذلك الحديث إن كان مع طلوع الشمس لم يزد ذلك خيراً ، وإن كان مع غروبها لم ينقصه ذلك شيئاً . هذا ولعل الحديث في نفسه لم يكن قط ، ولم يصل هو في تلك الليلة البتة . وهو مع ذلك زعم أنه دخل على أصحاب الكهف فعرف عددهم ، وكانت عليهم ثياب سبتية ، وكلهم معط الجلد . وقد

(١) « فصول لم تنشر من آثار الجاحظ » الكاتب المصري عدد ١٧ (فبراير ١٩٤٧) .

